

المقابر

مدن العرب

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية ان العرب ايان عزم لم يأتوا شيئاً يذكر في اعمال العمران وان قصارهم ان تلقفوا بعض المدنية الفارسية واليونانية ومنتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من ام المدنية الحديثة في الغرب ويقول بعضهم انهم كانوا في فن البناء دون الرومان وان قصورهم الباقية لا تأخذ بتفنن عجيب في الهندسة على ان الباني من آثارهم الى اليوم في الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دهوى المدعين وما يحكيك في صدورهم من الاهواء .

ولقد رأينا بعضهم يتوكلون في الخط من اقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب » الذي قال في آخره : « وانظر الى ممالكهم وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه واقترسا كنهه وبدلت الارض فيه غير الارض فالبين قراهم خراب الا قليلاً من الامصار وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كانت لفارس اجمع والشام لهذا العهد وكذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة وقرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بساطع خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وقمايل البناء وشواهد القرى والمدائن . »

هذا ما يحتاجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو او البادية او العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والا فانه المدن التي مدينها العرب

ايام عزهم والامصار التي مصروها والفرى التي عمروها لاندخل تحت حصر في كل قطر
 ودخلوه ولو اياماً مما لم يقيس لتغيرم من الامم كالترك مثلاً الذين حكموا الاقطار الواسعة
 العاصرة بطبعتها ستائة سنة ولا تكاد تعرف لم مدينة أسسوها ولا مواتاً أخصبوه
 ولا ماءً اسالوه وشغلهم الشاغل حروب وغزوات هكذا مضوا ايام القوة وهكذا الحال
 زمن الضعف .

ومن قرأ كتب وصف البلاد نقبلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهاخذ ذلك على
 سبيل المثال مارواه الاقدمون في كيفية بناء سامرا او مصر من رأى احدى المدن العباسية
 التي اُنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد
 ان يبني سامرا فبنى مدينة الانبار بجذائها وأراد المنصور بعد ما أسس بغداد ببناءها
 فابتنى بالبلاء في البردان ثم بدا له وبني بغداد واراد الرشيد ايضاً ببناءها فبنى بجذائها قصرأ
 وهو بازاء اثر عظيم قديم كان للاكسرة ثم بناها المعتمد وزلها في سنة ٢٢١ وكان
 الرشيد حفر نهراً عندها سماه القاطول واتى الجنيد وبني عنده قصرأ ثم بني المعتمد ايضاً
 هناك قصرأ ووجهه لمولاه اشتاس فلما ضاقت بغداد عن عساكره واراد استحداث مدينة
 كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبني عنده سرمن رأى بنى دارأ وامر عسكره بمثل
 ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت اعظم بلاد الله وبني بها مسجداً جامعاً في
 طرف الاسواق وانزل اشتاس بن ضم اليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز
 واقام ابنه الوائى بسامرا حتى مات بها ثم ولي المتوكل فاقام بالمهاورفي وبني به ابنية كثيرة
 واقطع الناس في ظهر سرمن رأى في الحيز الذي كان احتجيره المعتمد واتسع للناس بذلك
 وبني مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وامر برفع منارة لتعلو اصوات المؤذنين فيها وحتى
 ينظر اليها من فراسخ تجتمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين
 شتوية وصيقية تدخلان الجامع وتخللان شوارع سامرا واشتق نهراً آخر وقدره المدخول
 الى الحيز فمات قبل ان يتم وحاول المنتصر تجميعه فلحقصر ايامه لم يتم ثم اختلف الامر بعده
 فبطل وكان المتوكل اتفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن احد من الخلفاء بسرمن رأى من الابنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل فمن
 ذلك القصر المعروف بالعروس اتفق عليه ثلاثين الف الف درهم والقصر المختار خمسة
 آلاف الف درهم والوحيد الف الف درهم والجمعي المحدث عشرة آلاف الف درهم
 والغريب عشرة آلاف الف درهم والشيدان عشرة آلاف الف درهم والبرج عشرة

آلاف الف درهم والصبح خمسة آلاف الف درهم والمليح خمسة آلاف الف درهم وقصر
 بستان الابنانية عشرة آلاف الف درهم والثل علوه وسفله خمسة آلاف الف درهم
 والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة الف درهم والمسجد الجامع خمس مائة الف درهم
 وبركوان للمعز عشرين الف الف درهم والفلايد خمسين الف دينار وجعل فيها
 ابنية بمائة الف دينار والفرد في دجلة الف الف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي
 يقال له الماحوزة خمسين الف الف درهم واليهو خمسة وعشرين الف الف درهم والثلوث
 خمسة آلاف الف درهم فذلك الجيع مائتا الف الف واربعة وتسعون الف الف درهم
 وكان المعتصم والواثق والمتوكل اذا بنى احدهم قصرآ او غيره امر الشعراء ان يعملوا
 فيه شعراً فن ذلك قول علي بن الجهم في الجعفري الذي للمتوكل

ومازلت اسمع ان الملو	كثيبي على قدر أقدارها
واعلم ان عقول الرجا	لن تقضي عليها بأثارها
فلما رأينا بناء الاما	م رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس	ولا الروم في طول اعمارها
والروم ما شيد الاولون	وللفرس آثار أحرارها
وكفا نفس لها نخوة	فطامت نخوة جبارها
وانتأت فتحج للمسلمين	على ملحدتها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون	اذا ماتت لا بصارها
وقبة ملك كانت النجوم	م تقضي اليها بأسرارها
نظمن الفاسفس نظم الحلي	لعون النساء وابكارها
لوان سلطات ادت له	شياطينته بعض اخبارها
لا يقن ان بني هاشم	تقدمها فضل اخطارها

وقال الحسين بن الفضال

مر من را أسر من بغداد	قاله من بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو	ابداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزه	ر عليها بحبر الابراد
واذكر المشرف المطل من الك	ل على الصادرين والوارد
واذا روح الرعاء فلا ت	س رواعي فراقه الاولاد

وله فيها وبفضلها على بغداد :

على سرمن راء المصيف تحية	مجللة من مغرم بهواها
الاهل لما تلاق ببغداد رجعة	تقرب من طليحها وذراها
تعلان لقي الله خير عباده	عزيمة رشد فيها فاصطفاها
وقولا لبغداد اذا ما نسجت	على اهل بغداد جعلت قداما
اني كل يوم شيف ميني بالقفا	حرورك حتى رايتي ناظرا

قال باقوت ولم تزل كل يوم سرمن رأي في صلاح وزيادة وعمارة منذ ايام المعتمد والواثق الى آخر ايام المنتصرين المتوكل فلما ولي المستعين وقويت شوكة الاتراك واستبدوا بالملك والشلوية والعزل وانسدت دولة بني العباس لم تزل سرمن رأي في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت يهد امراء الاتراك الى ان كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء واقام بها وترك سرمن رأي بالكلية المعتضد بالله امير المؤمنين كما ذكرناه في التاج وخربت حتى لم يبق منها الا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة ان به سرداب القائم المهدي ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ ساهرا وضار ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الارض كلها احسن منها ولا اجمل ولا اعظم ولا آنس ولا اوسع ملكا منها فصبغان من لا يزول ولا يهول

وذكر الحسن بن احمد الملهي في كتابه المسمى بالعز يزي قال وانا اجتريت بسرمن رأي منذ صلاة الصبح في شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها الوقت لم نعدم الا الابواب والمقوف فاما حيطانها فككاجدد فمازلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهي مقدار قرية بسيرة في وسطها ثم سرنا من الفذ على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو الظهر ولا شك ان طول البناء كان اكثر من ثمانية فراسخ .

وكان ابن المعتز مجتازا . امرا . تأسفا عليه وله كلام منشور ومنظوم في وصفها ولما استدبر امرها جعلت لتقض وتعمل انتقاضها الى بغداد ويعمر بها فقال ابن المعتز

قد افقرت سرمن رأي	وما لشيء دوام
فالتقض يحمل منها	سكانها آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب
حكم الضيوف بهذا الريع انفذ من حكم الخلائف آباي على الامم
فكل ما فيه مبدول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم
وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويدكر خرابها ويذم
بغداد وأهلها وبفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقمده
جدرانها فشهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكان عمرانها يطوى وكان
خرابها ينشر وقد وكلت الى المهجر نواحيها واستحث باقيها الى فانيها وقد تمزقت بأهلها
الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها بمحو الاثر والمقيم بها على طرف سقر نهاره
ارجاف وسروره احلام ليس له زاد في رحل ولا مرعى فيرتع لخالها نصف للعبون الشكوى
وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض
بالجنود اقطارها عليهم اودية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول
ودروعهم زبد السيول من خيل تأكل الارض بحوافرها وتمد بالقع سائرها قد نشرت
في وجوها غرراً كأنها صحائف البرق وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ونوطت عذراً
كالشوف في جيش يتلف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار الصبر
وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالاً والقلوب جلالاً لا تخلف بحجته ولا
لنقض مربرته ولا يخطي بسهم الرأي غرض الصواب ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب
قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا يتشظى عصاه ولا تطفى جمرة في
سن شباب لم يمين مأثماً وشيب لم يراهم هراً قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته
راجماً بالعراقب الظنون لا يطيش عن قلب فاضل الحزم بعد العزم ساعياً على الحق يعمل
به عارفاً بالله بقصداليه مقرأً لحلم ويذله قادراً على العقاب يعدل فيه اذ الناس في دهر
غافل قد اطمانت بهم سيرة لينة الخواشي خشة المرام تطير بها اجنحة السرور ويهب
فيها نسيم الجبور فالأطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل ان تحت مطايا الغير وتسفر
وجوه الحذر وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارفاً بالهجائب يوم من يومه وبغدر غده على
انها وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى كوكبها بقطان وجوها عريان وحصاها
جوه ونسيمها معطر وترايبها مسك أذفر وبومها غداة وليها سمر وطعامها هنيء وشرايبها
مرجيء وتاجرها مالك وتقيها فائك لا كبغداد كم الوسخة الومدة الهواء جوهها نار
وارضها خبار وماؤها حميم وترايبها سرجين وحوطانها نزوز وتشر ينها تموز فكم من شمسها

من محترق وفي ظلمها من غرق ضيقة الدار قاصية الجوار ساطعة الدخان قليلة الضيفان
أهلها ذئاب وكلامهم سياب وسائلهم محروم ومالم مكتوم لا يجوز اتفاقه ولا يحل خناقه
حشوشهم مسایل وطرقهم مزابل وخيطنهم أخصاص ويوتهم اقفاص وكل مكروه
اجل وللبيع دول والدهر يسير بالقيم ويترج اليوس بالميم وبعد الجاجة انتهاء والمم
الى فرجة ولكل سائلة قرار وبالله استعين وهو محمود على كل حال

غدت سر من را في العناء فيالها قفانك من ذكرى حبيب ومنزل
واصبح اهلها شبيهاً بحالها لما سجت من جنوب وشمال
اذا ما امروا منهم شكوا سوء حاله يقولون لا تهلك امي وتجعل

و يطول بنا المال اذا اردنا استقصاء اسماء المدن العربية كلها من شواطئ بحر
الظلمات في الغرب الى شواطئ المحيط الهندي في الشرق قال البلخي : ومن
يحصي بناء المدن وواضي القرى ومن يعلم مبادئ انشائها الا الله عز وجل وهبنا
اخيرون مدن فارس على نحو ما نجد في كتبهم والمدن التي احدثت في الاسلام
لقرب العهد وجدة التاريخ فمن لنا مدن الهند والصين والروم والترك وليس كل مدينة
او قرية مبنية منسوبة الى بانيها لانه قد تسمى المدينة باسم الباقيا او باسم لما قبل حدودها او باسم
ماء او شجر او شيء فما وقد يجوز ان يجتمع قوم بموضع من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا
بينك ان كل مدينة لا يوجب بالياً لها فاصداً اليها الى ان قال والكوفة مصرها سعد بن
ابي وقاص وكان بها رمل فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن
غزوان وسميها بحجارة بيض كانت في موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط
القص ويقال بل توسط البصرة والكوفة وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها
ويقال لها الزوراء ويقال بنو امم صن وسمتها الخلفاء مدينة السلام واول من بناها جعفر
المصور بنى بها قصر الخلد بناها في الجانب الغربي منه دجلة وجعل حوالها قطائع لمشمه
ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحريية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلعلما لهما المهدي
جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمي عسكر المهدي وتزايدت بالناس والبناء .

قال البلخي : فاعلم ان المدن تبقى على ثلاثة اشياء على الماء والكلأ والخطب فاذا
فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبقى . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد
عتبة بن غزوان ستة اربع عشرة وعالم امرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل
متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بني بعد ذلك واسط بناها

الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهي جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعاً وفي الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بني العباس السفاح بنى مدينة قرية من الكوفة وسماها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك اخوه المنصور بنى على الدجلة بغداد ويقال ان اسمها بك دار معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لانها يسلم فيها على الخلفاء ولأنها على دجلة نهر السلام وفي تسميتها بغداد وبغداد وبغداد وكان ابتداء بنائها في سنة خمس واربعين ومائة وتم بناؤها في سنة تسع واربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدي ولد المنصور مدينة تجاهها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد من المدين والبلا صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر ابن هبيرة

واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وامصارهم فمنها شيراز وهي مدينة اسلامية بناها محمد بن ابي القاسم الثقفي على اثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالاً وكان اسم احدى القرى كيدان فاسطوا بعض الحروف للايجاز والاختصار وابدأوا الكاف فافا

والمنصور بنى في الهند مدينة بنيت في صدر الاسلام وتسمى بالهندية ناميران كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة في العراق بناها سيد الدولة صدقة بن ديس سنة خمس واربعين ومائة وتسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع وارو بل وتسمى اردبيل في بلاد اذربيجان مصرت ايام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارييني ومرافقة بناها محمد بن مروان بن الحكم وكانت قبل مرافقة لدوابه فسميت بذلك ومرند بناها الافشين على اثر بناء قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد ارمينية مدينة شمكور وكانت مدينة قديمة اخربتها الصنادرية ثم جردها بغا سنة اربعين ومائتين وسماها المتوكلية . ومن مدن الجزيرة مدينة اذمة بناها الحسن ابن عمر بن الخطاب التغلبي . وبنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة وسماها الرافقة سنة خمس وسبعين فخرت الاولى وبقي الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن حضرموت في اليمن مدينة الشحر ولم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه في اخصاص فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين

وتسمائة . وكذلك بلاد مهرة ومصرها غلفار بناها احمد بن محمد وسمائها الاحمدية في سنة
عشرين وستائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند واحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك
سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية وبكند
والطوايس بناها قتيبة بن مسلم ايضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات الكور العربية
والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان وبورد مدينة وزوزف وكومن بناها
عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من اعمال خراسان وبنى في اقليم مازندران
دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمان وتسعين مدينة بكر اباد
في ذلك الصقع نفسه

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط (مصر) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما ملك
العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسمائها القاهرة . وفي اريقية
مدينة المهدي بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة ومدينة بونة بنيت بعد الحسين
واربعائة ومدينة بجادته وهي مدينة حسنة البناء طيبة الفناء بناها الناصر بن علناس
احد بني حماد سنة سبع وخمسين واربع مائة . ومدينة وهران بنيت سنة تسعين
ومائتين . ورباط الفتح في سلا من اعمال طنجة بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناء
المصور من بني عبد المؤمن . والسوس الاقصى يقال ان اول من عمره واجرعه فيه
الانهار عبد الرحمن بن مروان بن الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تامدلت مدينة سهيلة
جبلية مسورة من بناء عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ابغلي بانيها عبد
الله بن ادريس ايضاً ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجي سنة ٤٩٠ ويلي
مراكش فاس وهي مدينتان احدهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٣٩٢ والاخرى
عدوة القرويين بنيت سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان
العلوي وأشير بناها زيري والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المنعوت بالانام وسمائها
المحمدية وقلعة بني حماد بناها حماد بن زيري والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة
بظليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت ايام الحكم بن هشام
والهارونية من اعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسلية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس
وطرابلس المستجدة بمد فنع طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور وسيف

الدين قلاوون الصالحى بنيت في سفح ذبل من اذبال جبل لبنان بكورة من اكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الغربية نحو من خمسة اميال على شاطئ نهر يجري الى البحر وهي المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمنحصر لمدينة انطرسوس معاوية بن ابي سفيان في ايام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وبعدها مروان ابن الحكم ثم المنصور بعده وسميت الثغور لان المطوعين من اهل الخوزة كانوا يرابطون فيها ويغزون مدن الروم . واذنة (اطننة) بناها الرشيد على نهر سيمان . وطرسوس بنيت في ايام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم نزلها مكرم بن مطرف الاخي فصارت مدينة ونسبت اليه .

ومدينة الافلام بقرية مدينة احدها آل ادريس وسيله مدينة احدها علي ابن الاندلسي احد خدم القائم بحاته وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابنى الحمامات والخلجان والقصور والمنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وامر متاديه بالنداء الامن اراد ان يبني داراً او يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله اربعائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت ان تنصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذا ما التقطناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما اقامه العرب من الاحصار والقرى واعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدينة العربية وبدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف